٢ — الدكتور فرانسيس بيكون

حياته — فلسفته

٣ — الدور الثالث من أدوار حياته

قسونا على بيكون كما قسا عليه الدهر ، فتركناه وقد تنكرت له الأيام ، فقر مدقع ، ووحدة مملة ، وإنهاك للقوى ، وإجهاد للنفس ، وهو مع كل هذا مجد فى درس القانون ، فانتظم فى معهد خاص بتمرين المحامين فى لندن يعرف بنزل جراى وذلك فى سنة ١٥٧٩ . اشتغل بدرس القانون وهذه المحرجات تحيط به من جميع نواحيه ، بهمة لا تعرف الملل ، ونفس ملؤها الأمل ، غير أن ما انتابه من النوائب ، وتراكم عليه من المصائب ، أرغمه على أن يقترض من أصدقائه ، ما يذهب بِضَرَمه[1] ، ويقلل سغبه ، ويسد خلته ، وينقع غلته ، حتى أثقله الدين ، وبليل باله ، فأمسى فى ليل ساهر ، مكتلئ العين ، قد نبا به فراشه ، وخلق وساده ، لا يطمئن جنبه الى مضجع ، فخالفه السهاد ، وعاداه الكرى ، وكيف لا ، و « الدين هم بالليل ، ومذلة بالنهار » . ألحف دائنوه فى طلب مالهم ، ولم يعرفوا فى الطلب هوادة ، ولم يشفقوا على من قصم الدين ظهره ، وأقض عليه مضجعه ، وهو لا يزال صفر اليدين « لا يملك بلغه ، ولا يجد فى جرابه مضغه » . فانتحى عنهم

---

(١) اشتداد الجوع

ناحية ، وقلب لهم — كما قلبوا له — ظهر المجن ، وانعكف على عمله ، مؤثراً تغذية فكره — على ما به من اضطراب — على تغذية جسمه — على ما به من نحول واعتلال ، مضحياً بالمادة ، محتفظاً فى عزلته ، بكرامته

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له عليَّ من الطول امرؤ متطاول

توارى عن الناس — وهو فى أشد ما يكون اليهم — حرصاً على نفسه من الامتهان ، واحتفاظاً بسمعته من الابتذال

فنفسك أكرمها فانك إن تهن عليك فان تلقى لها الدهر مكرما

كل هذا بعد أن جرب الدهر وأهله ، فلم يجد ما يخفف لوعته ، ويفرج كربته ، ويرثى لمصابه ، ويرحم نضرة شبابه

جَرَّبت دهرى وأهليه فما تركت لىَ التجارب فى ود امرئ غرضا

على أن كل هذه المصائب ، وتلك الاحن ، لم تحل دون بلوغه قصده ، وتحقيقه غرضه ، فما عتم حتى حصل على شهادة المحاماة ، وتقرر قبوله محامياً فى سنة ١٨٨٢ أى بعد ثلاث سنين من اشتغاله بالمحاماة . فحقق بصبره قول القائل :

لا تيئسن وإن طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

وما هى إلا عشية أو ضحاها ، حتى فشا ذكره على الألسنة ، وسار فى الآفاق ، ورن فى الأقطار ، فأشاد بذكره الرواة ، وتحدث به السمار ، وتجاوبت بصداه المحافل

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

بهذه الصفات العالية ، والأخلاق النبيلة ، والخطط الحكيمة ، ألقى علينا بيكون درساً جليلا فى الصبر على المكاره ، ومقاومة صروف الدهر حتى تقهر ، والاستهانة بعقباته حتى تذلل ؛ لذلك أضحت سيرته المثل الأعلى لدروس التجرد عن اليأس ، ومغالبة الدهر الذى لم يخضع إلا للصابرين ، ولم ينزل إلا على إرادة المجاهدين ، حتى ولو كانوا على أنفسهم من المسرفين « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » « ولا تيئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون »

أقبل الدهر على بيكون فأقبل الناس عليه ، شأنهم فى جميع أطوارهم ، وسنتهم منذ وجودهم ، فتراكمت عليه الأعمال القضائية ، وانهالت عليه الأرزاق من كل صوب وناحية ؛ واصبح مدره القوم الذى لا يبارى ، وقائدهم الذى لا يجارى ؛ لا تخفى عليه فى القانون خافية ، ولا تغيب عنه شاردة ، ولا تنبو عن ورود ساحته واردة ؛ وكما صار سمر القوم فى أنديتهم ، أصبح موضع إعجاب القضاة فى جلساتهم ، فتقرب اليه من جفاه ، وصادقه من عاداه ، وأثنى عليه من ثلم بالأمس عرضه ، وأكبره من صغره ، وعظمه من حقره ، وأكرمه من أهانه والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

وأسطع دليل ، وأقوى برهان ، وأنصع حجة على صدق ما ذكرناه ما قرره ما كولى ؛ خير من نقد ، وأصدق من روى ، وحجة

كبار الكتاب من الانجليز ؛ فقد ذكر فى مقالته فى بيكون (وهى إحدى مقالاته المشهورة التى كتبها فى سير عظماء الرجال وأعمالهم وكونت كتابه الضخم المعروف بمقالات ماكولى) أن بِنْ جُوْنْسُون (Ben Jonsen) أشهر قضاة إنجلترا فى زمن بيكون وصفه وصفاً دقيقاً فى العبارة الآتية :

« ظهر خطيب من المحامين فى وقتى ، انحصر فيه النبل ، وحاطته الرزانة فى خطاباته ، وكانت لغته فى مقام المداعبة والسخرية انتقادية . ولكنها شريفة ، قاسية ، ولكنها حقيقية ، مرة ، غير أنها بريئة ، مؤلمة ، إلا أنها طاهرة ؛ ولم أر أحداً يتكلم بدقة ، ويزن كلماته بميزان حساس أكثر منه . فكان كلامه يملك على السامع لبه ، وينفذ الى قرارة قلبه ، ويصل الى أعماق نفسه . لم أشهد انساناً تحاشى فوارغ الكلام ، وتجنب غثه ، وسلم من سخفه ، وتجرد من خمول الذهن مثل بيكون . كانت عناصر خطابته ، ومباحث دفاعه ، حاضرة فى ذهنه ، رهن بيانه ، وطوع لسانه ، مصوغة من حكم مستطرفة ، وملح مستظرفة ، ميز بها بيكون ولم تعرف إلا عنه . كل هذا جعله يسحر السامعين ببيانه ، « وإن من البيان لسحراً » ، ويتسلط على عقولهم بفصاحته ، ويملك قلوبهم ببلاغته ، ويتحكم فى عواطفهم بدقيق نظراته ، ورشيق إشاراته . فكان السامع اذا اضطر الى أن يسعُل أو يلتفت الى جهة من الجهات لا بد أن تفوته لطيفة من لطائفه ، أو نكتة من بدائعه ، فيمتلئ قلبه أسفاً وحزناً على ما فاته . كان يتحكم فى ميول القضاة ،

ويخضع قلوبهم لارادته ، فيدخل عليها ما شاء من حزن أو سرور . لم يوجد فى ذلك العصر من اتصف بهذه الصفات سوى بيكون ، لذلك كان كل ما يختاره سامعوه أن يختم خطابته ، ويتم دفاعه » . هذا ما قرره أشهر قاض شهد دفاع بيكون وسمع خطاباته الجمة ، ومحاوراته الكثيرة ، وكفى بذلك برهانا على ما قدمنا

سار بيكون فى حياة المحاماة ، دون أن تعترضه العقبات ، أو تعرقل سيره العثرات ، ذلك لما هو مقرر فى علمى الفلسفة والاخلاق من أنه لا يوجد ما يعبد الطرق ، ويذلل الصعوبات ، ويرسل ضوءاً ساطعاً ينير للمرء طريق حياته المقبلة ، كعلم الناس بكريم أخلاقه ، وحلو شمائله ، وجميل صفاته ، وشريف أغراضه ، عند ما يخطو أول خطوة من خطا الحياة بتوفيق ونجاح ، فاذا ما وفق الانسان فى هذا الطور من الحياة الى ما يرفع قدره ، ويعلى شأنه ، ويجمل ذكره ، عرفه الناس عظيما ، وقلما تتأثر حياته المقبلة ، بما يرميه به حساده من الهنات ، وبما يتهمه به منافسوه من السوءات . وعلى عكس هذا نرى أن من لم يوفق فى أول أمره ، وبدأ حياته بأغلاط شائنة ، وهفوات مزرية ، مع خبث النفس ، وسوء الخلق ، وقبح السمعة ، يتعذر عليه بعد ذلك محو هذه الوصمات . اللهم إلا اذا أتى بخوارق العادات ، وطهر نفسه من رجس هذه الزلات ، والأمثال على ذلك كثيرة فى مصر ، ولولا ما نخفته من التعرض لذكر أشخاص بعينهم لذكرنا ما يؤيد كل ما قررناه أعظم تأييد

وسنعرف فيما بعد الأخلاق النبيلة التى كان عليها بيكون حينما بدأ حياته ، والأغراض الشريفة التى وضعها نصب عينيه وكان يرمى الى تحقيقها . قضى على بيكون مركزه الجديد بأن يزج بنفسه فى ميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، وكان الناظر اليه لأول مرة ، وبدون إنعام ولا خبرة ، يتوهم فيه الاعجاب بنفسه : وقد يكون فى هذا شىء من الحقيقة ولكنه كان إعجاب من يشعر بعظمة نفسه ويعتقد أنها جديرة بالقيام بعظائم الأمور وجلائل الأعمال ، ولم يكن إعجاباً بمعنى الصلف والكبر ، بل كان نوعا من احترام النفس وإعزازها اللذين مصدرهما الشعور بالقوة النفسية العظيمة

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

لذلك وضع نصب عينيه غرضاً من أعظم الأغراض وأجلها وأعمها نفعاً ، وهى خدمة بدوم أثرها ما دام الانسان . وذلك باظهار حقائق الأشياء أو البحث عن الحقيقة

ولم تكن تلك نُعرَة[1] من بيكون ولا خيالا ولا وهما ، ولا أمنية تجول بالخاطر دون أن يكون كمالها فى النفس من أثر ، كما لم يكن حديثه مع صحابته فى هذا الموضوع أقوالا مبرقشة وألفاظاً جوفاء ودعاوى كاذبة ، بل كان ما فى نفسه من ذلك وما يتحدث به إيماناً ثابتاً وعقيدة راسخة ، مقروناً بالعمل

(٢) النعرة كهمزة الخيلاء والكبر والأمر يهم به

والمرء ليس بصادق فى قوله حتى يؤيد قوله بفعاله

قضى على بيكون ذلك الموقف الخطير وتلك المهمة الشاقة ، باعادة الكرّة فى البحث عن منصب ذى أثر فعال فى أمته ليساعده على تنفيذ ما امتزج بدمه ولحمه من الاصلاح الذى انحصر فى ثلاثة أغراض (١) خدمة الانسان عامة (٢) خدمة بلاده خاصة (٣) خدمة الدين باصلاح النظم الكنسيّة ومحاربة النزعات المذهبية

كان سعيه المتواصل لتحقيق هذه الأغراض الثلاثة مفتاح حياته الاجتماعية ومبدأ حياته السياسية أما كفاءته لتحقيق هذه الأغراض فعظيمة ، يدل على هذا ما كان معروفاً عنه من حدة الذهن وصفاء الفكر ، وسداد الرأى ، وصدق النظر ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة والحذر والحيطة فى كل شىء ، وترتيب المقدمات واستنباط النتائج على حسب القوانين المنطقية المنتظمة والبعد عن التحيز الجنسى ، والتعصب الدينى ، والتشيع المذهبى . واذا أضفنا الى هذا ما قرره المؤرخون من أن بيكون كان ذا خلق عظيم ، ومزاج لطيف ، حصلنا على صورة واضحة تمثل لنا هذا الرجل العظيم أثناء اقتحامه ميدان الحياة السياسية ، وخوضه غمار الحروب الاجتماعية

الدور الرابع من أدوار حياته

أعماله السياسية

بعد أن اشتغل بيكون بالمحاماة سنتين مع الهدوء النفسى المقرون بحسن الذكر وبعد الصيت . وعلو المنزلة ، رشح نفسه لمجلس النواب

فنجح بأغلبية ساحقة وأصبح نائباً عن مقاطعة ميكلومب إحدى مدن مقاطعة دورست ، وذلك فى سنة ١٥٨٤ حيث كانت سِنُّه أربعاً وعشرين سنة [١] ولم يعرف بالدقة الحزب السياسى الذى انضم اليه فى هذه السنة ولا درجة ما وصل اليه من الشهرة السياسية . ولكنه وصل بعد السنة الأولى الى أوج عظمته السياسية ونال ما لم ينله نائب قبله من التفوق وعلو المكانة ورفعة الشأن ولهذا تجدد انتخابه عدة مرات عن جهات مختلفة وقد ظهر على جميع النواب فى الخطابة ودقتها وشدة التأثير على السامعين ولكن من المحزن أنه أصبح ثانية فى فقر مدقع وحال يرثى لها ، على أن هذا كله لم يؤثر فى نفسه العظيمة ، ولم يثنه عن عزمه ، ولم يحل دون تحقيق أغراضه التى سبق بيانها . لذلك قصر كل أوقات فراغه من أعمال المجلس على البحث فى دقائق العلوم والوقوف على أسرار الطبيعة ، وقد كان فى كل هذا ثابت الاعتقاد فى قدرته على العمل المثمر والبحث المنتج ، ولا نزاع فى ان هذه الصفات هى أول باعث للمرء على حب البحث والتنقيب . كانت تلك الرغبة مصحوبة بالحزم والتروى والانعام فى النتائج ، وقد أداه هذا الى الاعتقاد بأنه من المحال تنفيذ خطته ، وتحقيق منهجه ، إلا اذا توافر له أمران أساسيان : المال والجاه . لذلك جدد سعيه لدى الملكة

---

(١) وقع خطأ فى المقال السابق حينما ذكرنا أنه عاد من فرنسا الى انجلترا أثر وفاة والده فجأة فى فبراير سنة ١٥٨٠ وهو فى الثامنة عشرة والحقيقة أن سنه كانت عشرين سنة فى ذلك الوقت

البزابث فى الحصول على منصب ذى وظيفة كبيرة ونفوذ عظيم واستمر على سعيه زمناً طويلا استغرق سنوات لم يعرف مقدارها بالدقة ، ثم حصل على أمنيته وسار فى حياة جديدة هى حياة نائب خطير . وموظف كبير . سيأتى الكلام عليها وعلى ما أحدثت فى المقال المقبل إن شاء الله

ابو الفتح الفقى

الالوان

ظلت مسألة الالوان وتفسيرها بتفاسير علمية مقبولة غامضة حتى أواخر القرن السابع عشر فقد كانت الفكرة السائدة إذ ذاك أن كل الضوء بطبيعته أبيض وعند ما يخترق قطعة حمراء من الزجاج يكتسب منها اللون الاحمر وكذلك اذا سقط على ورقة خضراء يصبغ بلونها وهكذا ولا يخفى ما فى ذلك من الخطأ البين

وقد كان نيوتن أول من حارب هذه الآراء والنظريات بما وضعه من التجارب العملية

فبأمرار حزمه من ضوء الشمس فى منشور من الزجاج أمكنه الحصول على ألوان الطيف المعروفة ولا يمكن تعليل ذلك بأن الضوء اكتسب لونه من زجاج المنشور لشفافيته

وقد استنتج نيوتن من ذلك أن الضوء ليس بسيطاً بل مركباً